الحياة الادبية في الحجاز

نهضة الشعر

للأستاذ أحمد أبو بكر ابراهيم

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

سمع هؤلاء الشعراء هذه الصيحة التي صاح بها أدباء المهجر في وجه التقليد فاستجابوا لها لأنهم وجدوا فيها دعوة إلى الصراحة والتعبير عن النفس في وضوح وجلاء ؛ والعربي أقرب الناس إلى هذه الصراحة ، كما وجدوا فيها خروجاً على التقليد الذي قعد بهم عن الرقي الزمن الطويل ، ولهذا صاح كثير منهم في الحجاز في وجه التقليد ودعوا إلى مثل هذه الدعوة التي دعا إليها جبران فقال أحدهم : « بعض من شباننا الأدباء وبعض من قراء (الكتب القديمة الجامدة) يقرض القطع الشعرية البديعة الناصعة ، ناصعة والحق يقال . ولكن ما ذا يضمنها من الأفكار ؟

ينظمها في الخمريات وفي الغزل وفي المديح وفي الحماسة وفي الحكمة ، وكل هذه من الأفكار الميتة التي دفنت مع عصور ... فلا تصلح لنا...

وقال : « أمامنا الوطن ، أمامنا العادات والأخلاق ، أمامنا الحرية بأنواعها ، أمامنا الشرق الكسول ، أمامنا التغني بأمجاد الشرق ، أمامنا العرب بحالتهم السياسية ، أمامنا الغرب باختراعاته »

أخشى أن ينتقل بنا الحديث من المائدة إلى مشكلات فلسفية عميقة ، فهي توشك أن تفتح أمامنا أبواب بحث جديد ، جدير بالتفكير . هل هناك مادة في الوجود كما يبدو أم هي بدعة أنشأها الفكر البشري إنشاء وخلقها من العدم خلقاً ؟ ! ... هل تدل مظاهر الأشياء على حقائقها وتنطبق عليها انطباق المثال على المثال أم تختلف عنها اختلافاً بعيداً أو قريباً ؟ ! ...

ثم وضع صاحبي كفه القوية فوق كتفي ، وقال في عطف ونصح : فكر في كل شيء ، وستشك في كل شيء ! !

زكي نجيب محمود

. هذا هو الروح الجديد المتوثب الذي سرى في شباب المدرسة الحديثة في الحجاز . ولعل القارئ يدرك التشابه بين هذا الروح واتجاه أدباء المهجر ، بل لعله يدرك التشابه في الأسلوبين وطريقتهما.

ولما كان أدباء المهجر أحراراً في كل شيء ، متمردين على القيود القديمة والأغلال المتوارثة ، فقد بدأ هذا التحرر في القافية وطريقة الوزن الشعري والموضوعات والمعاني والأخيلة ، ومن ثم تابعهم شعراء الحجاز المجددون في كل هذا : فالكثرة الناشرة من قصائدهم لا تتبع قافية واحدة ، والمربعات والمخمسات والدوبيت والموشحات تفوق عندهم القصائد وتربي عليها . ونحن نسوق هنا مثلا من الطرق التي يتبعونها في قافيتهم . فما جاء من ذلك مناجاة « لحسن فتى » يناجي فيها القمر ومنها :

حسبي من الدنيا الحقيرة أن أراك لدى المساء
تلقي بنورك في القلوب كبلسم يزجي الشفاء
فأعود بالذكرى إلى عهد اللذاذة والهناء
وأبث ما يجد الجنان

حسبي من الدنيا بقاؤك ساطعاً فوق الهضاب
مترنحاً من نشوة الحسن المسيطر والشهاب
متطلعاً من عرشك العالي إلى أسرى العذاب
ترنو إليهم في حنان

بل إن الشاعر هنا لا يريد أن يعترف بشطري البيت فساقه جملة كما يفعل شعراء المهجر أيضاً .

ومن الطرائق التي يتبعونها في القافية أن يغير الشاعر القافية في كل بيت ، ولكنه يذيله بكلمة متحدة القافية مع الكلمات الأخرى وفي هذا النوع يقول الشاعر « عمر عرب » في قطعة عنوانها « عصر الشباب » :

حدثيني عن الصبا والشباب ... عن زمان الهناء بين الصحاب
حدثيني

حدثيني عن الهوى يا مهاتي ... إن هذا الحديث يحيي رفاتي
حدثيني

ويقول :

لست أسلو هواك يا هند يوما ... لا ولم أخش في عذابك لوما
صدقيني

ذكريني بذلك العهد عند كيف نلنا الآمال والعيش رغد
ذكريني

وهكذا يحاول شعراء المدرسة الحديثة أن يتخلصوا من قيود القافية ؛ حتى ليسوق إليك بعضهم كلاما يخيل إليك بادىء الأمر أنه نثر ، فإذا أطلت النظر فيه وجدته شعرا ونثرا ؛ قد التزم فى بعضه الوزن وأطلق الآخر حراً دون قيد ، ومن ذلك كلمة للأديب « عزيز ضياء » عنوانها « عيد » يقول فيها بعد كلام طويل وصف فيه مغيب الشمس قبلة ليلة العيد ....

ثم لما ابتلعها لحدها وغيبها دهرها
صاح فى الروض طير
لقد ماتت ذكاء
فكان يوم قديم قد مر وكان شهر قديم قد انقضى
وجن جنون السحاب الحزين
فناح نواحا يثير الحنين
وراح يناجى الربى والحزون
يمزق فوق الربى وجهه
ويهرق فوق الثرى دمعه
ولم يرث قلب لتلك الدموع
فغاض المحب بأنفاسه
وراء الجبال وراء الحبيب ... الخ

فلعلك مدرك بعد هذا أن الأديب هنا قد جمع بين الشعر المنظوم والشعر المنثور وأن الفقرة التى أولها « وجن جنون السحاب الحزين » شعر موزون من بحر التقارب ولكن الأديب لم يلتزم فيه قافية متكررة . على أنك واجد فى بقية القطعة تحرراً من الوزن والقافية معاً .

ويجب أن يستقر فى أذهاننا أن تقليد الحجازيين المتئدين منهم والمتوثبين تقليد قوى لا تغنى فيه شخصياتهم وإنما يقلدون غيرهم فى الطرائق والمناهج ويصورون بعد ذلك عواطفهم وميولهم ، فهم متأثرون بهذه البيئة أشد التأثر : متأثرون بطبيعة أرضها وعادات أهلها وآمالها وعقائدها .

والشاعر إذا شعر تجد فى ثنايا شعره كل هذه الاتجاهات واضحة جلية :

يقول معالى الدكتور هيكل باشا : « ثم إن الأدب يتأثر دائما بالبيئة التى تحيط به كما يتأثر بأحداث الزمان ، وإذا كانت هذه الأحداث قد بعثته فى الحجاز ، حتى جعلت أهله يتطلعون إلى غيرهم من الأمم المجاورة لهم ، فان البيئة العربية الصحيحة التى لم تتغير ، قد بقى لها أثرها فى هذا الأدب ، شأن كل بيئة فى أية أمة من الأمم ، ولعل أثر البيئة الطبيعية أكثر وضوحا فى شعر أدباء الحجاز منه فى نثرهم .. »

ونحن إذا أردنا أن نلتمس الدليل على ذلك وجدناه واضحاً جلياً ، فهم مع اطلاعهم على الآداب الأخرى لم ينسوا أن يصفوا جبالهم وهضابهم وما ينبت فى أرضهم من أثل وأراك ؛ فعبد الوهاب آشى يقول :

بلاد حبتها الطبيعة ما يحبب للقلب أدوارها
جبال تناطحجون السحاب وتوحى إلى النفس أفكارها
تنائف تمرح فيها الوحوش تساجل فى الدوح أطيارها
ومشتبك الأثل فى غابها كما جارة عانقت جارها
إذا الليل أرخى ستائره أرتك الكواكب أنوارها

وفى الأبيات الآتية ما يصور للقارىء ناحية من نواحى الحياة بالجزيرة حيث يقام استعراض عام للجيوش ، فتبدو الخيل صاهلة والإبل ترغو والأعلام خافقة ، وقد قيلت فى الاستعراض الذى أقيم احتفالا بنجاة جلالة الملك ابن السعود من حادث المطار سنة ١٣٥٣ هجرية :

فى موكب (العرضة الكبرى) وقد لعبت
فيها الرماح وقامت ترقص القضب
والخيل تصهل والأعلام خافقة
والأسد تزأر والآفاق تصطخب
والابل ترغى وأصوات البنادق
كالرعد المدمدم تروى رجعها السحب

ولما كان اتصالهم بالثقافة الحديثة اتصال النائب المجد ، اتصال الذى لا يترك كتابا ظهر فى عالم التأليف حتى يأتى عليه ، لما هذا فقد رأيناهم يعالجون الموضوعات النفسية ويأتون ببعض المعانى الفلسفية التى تتصل بالروح والحياة والغرائز البشرية فأحمد قنديل يناجى الحياة فى قصيدة طويلة جاء فيها :

أنا بين ماضى المنير وحاضرى الـ ... اجى وتحت غمامة المستقبل
متفائل متشائم فى فكرى الـ ... اى عراك هائل لا ينجلى
أبداً أظل برحلتى كالهائم الـ ... اعى إليك بحيرة وتأمل
لا تصطفين سوى محب حام حو ... لك هائم متعزلا يستكين

ولثمت فاك فكان خمرى اللمى حلو الرحيق
لكن نشدت الطهر فيك فما وجدت لعبوق

إلى أن يقول :

من أنت ؟ بل قولى بحقك : من أنا ؟ فأنا الصديق
المكره الصادى الفؤاد ، أنا الأسير أو الرقيق
أنا من ولدت مزوداً بهواك يجرى فى العروق
سأظل حولك ساخراً دهشا بذياك البريق
متصابياً أسقى الرضا حيناً وأشوى بالحريق
حتى إذا انكشفت ستارتك الصفيقة فى المضيق
سأكون ويلك مع ضحاياك الرقود بذى الشقوق
وأعود فى كنف الخلود أو السما روحا طليق

وقد اتفقت كلمة شعراء الحجاز من المدرستين على أن يطرقوا من موضوعات الشعر ما يلامس الحياة الواقعة ، ويتصل بآمالهم وما ربهم ، فهم يتناولون الموضوعات القومية والاجتماعية التى يحتاجون إليها فى مجتمعهم ؛ فالشيخ محمد سرور الصبان يقول فى الوطن :

أنا لا أزال شقى حبك هائماً فى كل واد
زعم العواذل أننى أسلو واجنح للرقاد
كذبوا وحقك لست أقدر أن أعيش بلا فؤاد
ولسوف أصبر للعصا ئب والكوارث والبعاد
حتى أراك ممتعاً بالعز ما بين البلاد

ويقول الأستاذ احمد العربى فى قصيدة له عنوانها « أيها العيد »

أيها الموسرون رفقا وعطفاً ... وحناناً بالبائس المحزون
ربما بات جاركم طاويا جو ... عا بتم تشكون بشم البطون
ربما ظل طيلة العيد يستخفى من الصحب قابعاً كالسجين
يتوارى من سوء منظره المزرى ومن حاله الكريه المهين
أى فضل للعيد يستأثر المثرون فيه بالطالع الميمون ؟ !
والفقير الكئيب يرجع منه بنصيب المرزأ المغبون ؟ !

وشعراء الحجاز منذ أن تفتحت أمامهم نواحى النهضة الحديثة يعالجون بشعرهم الموضوعات السياسية ويرون أن النهضة لن تكون إلا إذا تعاون العرب جميعاً فى أقطار الأرض . وفيما يلى ابيات للأستاذ النزاوى يخاطب فيها مصر :

يامصر أنت وقد دأبت منارة ... للمهتدين وسعيك المترسم

* * *

يا مصر ما أولى بنيك بقومهم ... فعلام يوغرك الخلاف المبهم
يامصر قد أغضيت عمن ليلهم ... فيك السهاد وفى جمالك تيموا
يا مصر يا أم الحضارة والنهى ... مهلا فحبك فى الجوانح مدغم
يامطمح الأمل العتيد وعزة الماضى ... فى المجد وما أظل ويقدم
يا ربة الأهرام والمجد الذى ... ما زال فى أمم البسيطة يكرم

إلى أن يقول :

ردى على تحيتى فلا متى ... قلب عليك مع العتاب مقسم

ويقول الأستاذ عواد من قصيدة يصف فيها جنبى الديموقراطية فى ميادين القتال :

يستثير المجد فى عمل ... هائل المغزى يعظمه
حيث موسيقا الخلود إذا ... طوحت بالجبن تحطمه
والصدى كالصوت صاعقة ... والصفوف السود ترجمه
يسأل الأقدار هل بدد ... تنسل الدوان أو دمه ؟
فاذا بالكون ليل أسى ... تتهاوى فيه أنجمه
وإذ الأصداء قائلة : ... قول صدق لا تجمجمه
أيها التاريخ هذا بطل ... فسله للخلد مسلمه

ومن الأغراض التى نالت حظا من الرقى « النزل » فقد اتجه الشعراء فيه إلى ذكر الهوى والشوق وتوجع الصبابة وفى وفى الأبيات الآتية وهى « لمحمد حسن فقى » ما يدل على صدق العاطفة وتدفق الشعور :

لا أنت يا قلب بالسالى فتهجره ... ولا الوصال بميسور ولا دانى

عش هكذا خافقا ياقلب مكتئبا فليس حزنك بعد اليوم بالقاني
أواه ! إن جحيم الحب يضهرني فما الذي بجحيم الحب أصلاني ؟!
لا آخذ الله من أصمى بمقلته قلبي وغادرني تهبا لأشجاني
إليه أبعث أناتي مؤججة ومنه أقبس أشعاري وألحاني
وفيه ألتذ بالبلوى وأحمدها إن كان يرضيه تعذيبي وهجراني

وليس عجيبا أن يجيد العربي ذكر الهوى والغرام ؛ فهو عفيف لم تلوثه المدنية بآثامها ، ولم يسلس قياد المرأة له حتى تنطفئ جذوة غرامه وتخبو حدة حبه . فلا تكاد فتاة المدن في الحجاز تتجاوز عهد الطفولة حتى تحتجب عن الأنظار ويضرب الحجاب بينها وبين الشبان ، ويصبح من المحال أن يلتقي شاب بفتاة أو أن يختلس منها نظرة عابرة .

وفي الشباب الحجازي عاطفة متقدة ، أملتها عليه طبيعة هذه البلاد المتقشفة ، فهو إذا تحدث عن الهوى كان حديثه حديث من حدت شهواته ، فخرجت أبياته زفرات وآهات ملتهبة . قال الأستاذ حمزه شحاته :

بعد صفو الهوى وطيب الوفاق عز حتى السلام عند التلاقي
يامعاقي من داء قلبي وحزني وسليما من حرقتي واشتياقي
هل تمثلت ثورة اليأس في وجهي وهول الشقاء في إطراقي
أي سهم به اخترقت فؤادي حين سددتها إلى أعماقي
إذ تهاديت مبدلا نظرة العطف بأخرى قليلة الإشراق
مسرعا في المسير تنتهب الخطو فهل كنت مشفقا من لحاقي
وتهيأت للسلام ولم تفعل فأغريت بي فضول الرفاق الخ

أما سوق المدح في الشعر الحجازي فهي نافقة رائجة ، ولهذا الغرض شعراء من المدرسة المتئدة قد أجادوا فيه وأكثروا ، ولعل الذي جعلهم يجيدون ويطيلون ماوجدوه في جلالة ابن السعود من معان تستأهل المدح وتستحق الإطراء والثناء ؛ فهو الذي أمن البلاد بعد خوفها ، وهو الذي بعث الحياة في نواحيها فشاد دور العلم واستحث الهمم للنهوض ، وهو الكريم الذي يولي الهبات وهو الشجاع الذي أسس الملك على أساس من القوة .

ولا يقتصر المادحون على مدح الملك وإنما يمدحون أبناءه الأمجاد فيجدون عندهم من الحفاوة والتكريم ما يرضي نفوسهم ويحملهم على المزيد . قال النزاوي يمدح جلالة الملك بعد الحلف الذي أبرم بين الحجاز واليمن :

وأنت الذي أعلى يك الله صرحها وأرشدها للعرف بعد التناكر
فأمابنوك الصيد فالدهر شاهدي لديك بما قد قلدوا من مفاخر
أصاب ولي العهد أبعد غاية تسامت فأعيت بالثنا كل شاكر

وقال أيضاً في قصيدة طويلة يهنيء بها سمو الأمير فيصل بعودته من رحلة له في أوروبة سنة ١٣٥١ هجرية :

بدر تم يتجلى أم فلق أم شعور فاض فاستهوى الحدق
أم هو الفيصل ألقى ضوءه يغمر الشعب ويستبق الرمق

* * *

أيها القادم من أقصى الورى قد ملأت اليوم بالبشر الفلق
قد شهدت الشيخ في حبوته والفتى الناشيء بالحب فهق

إلى أن يقول :

فإذا ما قلت شعبي مخلص لمليكي قالت الدنيا صدق
أي أمن ترتجيه ومنى ونعيم فوق ما فينا بسق

ولا ضير علينا بعد الذي خصلناه في باب الشعر أن نقرر أن الشعر الحجازي قد تقدم في هذه الفترة القصيرة : في أغراضه ومعانيه واستطاع أن ينأى عن التلاعب بالألفاظ وألوان الزينة . ولكن ذلك لا يمنعنا أن نقول ، إن الحجاز مهد الأدب شعره ونثره لا يزال يتطلب من شعرائه المزيد وبخاصة فيما يتصل بقوة الأساليب ورصانتها ؛ فإن الكثير منهم مع إجادته لا يهتم أحيانا بجزالة الأسلوب ورصفه شأنه في ذلك شأن شعراء المهجر أولئك الذين يقول في أدبهم الأستاذ العقاد : « وبين محتويات هذه المجموعة « مجموعة من أدبهم » ما يسمو معناه إلى درجة رفيعة في البلاغة والذكاء وفيها من الابتداع ما يقل مثله بين آيات أدباء الغرب العصريين ولا يؤخذ عليها إلا ما يؤخذ عادة على كتاب العربية في أمريكا : تساهل في قواعد اللغة ، وضعف في أساليب التعبير بها ، وما عدا ذلك فطرفة تستحق الثناء »

أحمد أبو بكر إبراهيم